

تاريخ يعيد نفسه في شرق الأردن

يتفق الجغرافيون والمؤرخون فيما بينهم على كثير من الأشياء ، ولكنهم يختلفون على أمر واحد خطير ، يتصل بتقدير ما بين الإنسان والبيئة من علاقة ، وبتفسير حوادث التاريخ واتجاهاته الأساسية . فهل البيئة الجغرافية بمظاهرها المختلفة هي المسؤولة الأولى عن توجيه نشاط الإنسان ، وتعريف حوادث التاريخ ، وتحديد اتجاهاته ؟ أم إن الإنسان ، فرداً أو جماعة ، هو سيد الطبيعة ، والمسيطر الأول على الحوادث والتاريخ ؟ وأصحاب الجغرافيا مهما اختلفت نزعاتهم ميالون بحكم دراساتهم إلى تغليب أثر البيئة . بل يذهب بعضهم إلى إقرار ما يسمونه « بالحتم الجغرافي » . فالجماعات البشرية في نظرهم مسيرة بحكم ما تعيش فيه من ظروف طبيعية ؛ فالإنسان مهما كدح ومهما اجتهد فإن الطبيعة هي الغالبة . ولئن كان هذا الإنسان قد استطاع أن يحوّر بعض مظاهر الطبيعة بين حين وحين ، فإن ذلك التحوير لم يخرج بها عن قواعدها الثابتة وقوانينها الحاكمة . وغاية ما هنالك أن الإنسان استطاع بذلك أن يستغل موارد الطبيعة الصالحة ، فبدا كأنه المتحكم فيها ؛ مع أن الأمر قد يكون غير ذلك ؛ فالطبيعة ذاتها كثيراً ما توحى إلى الإنسان طريق الاستغلال ، فتوجهه من حيث لا يشعر .

وأما أصحاب التاريخ فيندر بينهم من يبدأ بالبيئة ، أو يسلم لهم بأكثر من تأثير ثانوى . وكثرتهم تفضل ، بحكم الدراسة أيضاً ، أن تبدأ بالإنسان على أنه كائن حر التصرف ، في حدود ما تقتضى به القوانين والنظم الوضعية ، أى التى تواضع عليها الناس . بل إن حوادث التاريخ في نظر كثير من هؤلاء المؤرخين إنما ترتبط ارتباطاً مباشراً بأعمال الناس ، التى توجهها فى الغالب إرادة تفر قليل هم قادة المجتمع وكتّاب التاريخ .

ولكن الحق أن هذا الاختلاف بين الجغرافيين والمؤرخين لا يشملهم جميعاً ؛ وإنما هناك فئة من أولئك وهؤلاء ترى فى هذا الاختلاف لوناً من ألوان التعصب

الفكرى لا مسوغ له ، ولا تقع فيه ؛ بل هو يناقض ما تقتضى به روح العلم الصحيح من اتساع الأفق ورحابة الفكر ، ومن الاستعداد دوماً للأخذ والعطاء وتقليب الفكر بين الإقناع والاقتناع . وليس أضر على العلم والمتعلمين ، ولا أضر على البحث والباحثين ، من ضيق الفكر والتعصب لرأى معين أو مجموعة معينة من الآراء . ومن يدرينا ! فقد تكون التفرقة بين الإنسان والبيئة في حد ذاتها أمراً لا مسوغ له ؛ بل قد يكون الفصل بينهما وهماً لا وجود له في الواقع . فالإنسان عنصر أساسى من عناصر البيئة بمعناها الأشمل ، وبدونه لا تكتمل صورتها العامة ، ولا يكون للحياة على سطح الأرض طابعها المميز من وجهة نظر الجغرافى والمؤرخ على السواء . وليس من الممكن عقلاً أن تتصور تاريخاً يجرى في الطبيعة لو أنها عقلت من الإنسان ، ولا أن تتخيل أن الإنسان يستطيع أن يخلق تاريخاً لو أنه عاش في الفضاء . وإذن فقد يكون عبثاً أن تفصل بين الاثنين ، أوحى أن نحاول المفاضلة بينهما ؛ فقد تكون الطبيعة هى العنصر الغالب في مكان ما ، وفي زمان معين ، فيجرى النشاط البشرى في حدود معينة مرسومة ؛ أو قد يكون الإنسان هو العامل الأول فيستغل الطبيعة حيناً ، ويستجيب لها بمحض إرادته حيناً آخر . ولكن الشئ المهم أن النشاط البشرى في مجملته إنما هو نتيجة لما يتم بين البيئة والإنسان من تفاعل ، لا يهم فيه كثيراً أن تكون الطبيعة موجبة والإنسان سالباً ، أو أن يكون الأمر عكس ذلك .

وإذا نحن نظرنا إلى تاريخ البشر هذه النظرة ، فقد يعيننا دأب على تلمس ما قد يكون هناك من حقيقة في الحجة القائلة بأن التاريخ يعيد نفسه . ذلك أن التفاعل بين البيئة والإنسان مهما اختلفت ظروفه التفصيلية فهو لا يخلو من بعض العناصر الأساسية الدائمة . فطبيعة البيئة الجغرافية من جهة ، وطبيعة النفس البشرية من جهة أخرى ، لا تتطور إلا في ببطء شديد ، ولا تتحور إلا بقدر معلوم ؛ وإذن فلا بد من أن تتشابه نتائج التفاعلات بينهما من عصر إلى آخر ، في المكان الواحد والمجتمع الواحد على الأقل .

وبقدر ما يطول التاريخ البشرى في إقليم ما ، تتعدد الأدلة والشواهد فيه على تشابه الحوادث وتكرارها على مر العصور . وظاهر أن الشرق الأدنى أحد تلك الأقاليم التى يطول فيها التاريخ . وقد يكفينا أن نبحث منه منطقة واحدة صغيرة لتبين تشابه بعض أوجه التاريخ وصوره من عصر إلى عصر . وسنختار إحدى

مناطقه الداخلية ، والتي كانت بمثابة حلقة اتصال بين أطرافه في الشرق والغرب وفي الشمال والجنوب ... تلك هي منطقة شرق الأردن ، التي كان تاريخها إلى حد بعيد صورة واضحة من تاريخ الاتصال بين مختلف أجزاء ذلك الشرق ، وارتباطها بعضها ببعض ارتباطاً شمل نواحي الحياة التجارية والثقافية والسياسية جميعاً .

ويقع شرق الأردن في قلب القسم الشمالي من الشرق الأدنى ؛ ويحتل الحافة الشرقية لمنخفض البحر الميت ، وهي مرتفعات مؤاب الوسطى ، وما يليها جنوباً في بلاد إدوم القديمة ووادي العرابة ، وشمالاً في شعاب اليرموك وروافده التي تنتهي إلى سهل الأردن . ويبلغ بعض مرتفعات مؤاب أكثر من ١٥٠٠ متر فوق سطح البحر ؛ وهي تتلقى الرياح الغربية الممطرة في الشتاء ، فتتصرف مياهها في أودية عميقة شديدة الانحدار نحو البحر الميت من جهة ، وفي أودية أخرى قليلة الانحدار ، تتجه نحو بادية الشام وأطراف صحراء النفود من جهة أخرى .

وهذه المرتفعات تكسو جوانبها الخضرة والأعشاب في أشهر الشتاء والربيع ؛ وتوجد في أوديتها وأحواضها التربة ، ويطيب الغرس والزرع ولو في بقاع محدودة بالنسبة للمساحة الكلية . ولذلك كانت هذه المرتفعات قاعدة حياة تمثل فيها جانب البداوة والتنقل ، وجانب التحضر والاستقرار . وقد حماها البحر الميت ومنخفضه ؛ فمنع عنها ما وقعت فيه أرض فلسطين من اضطرابات شغلت التاريخ إلا أقله ، كما حماها البادية والفيافي من الشرق ، فتحت لها بذلك الوقاية ، وضمن لها الهدوء النسبي من الغرب والشرق . ومع ذلك فقد اتصلت هذه المرتفعات ببقية الشرق الأدنى اتصالاً منتظماً عن طريق الجنوب والشمال ؛ وأصابها من ذلك الاتصال خير كثير وشر غير قليل . بل إن موقعها الجغرافي جعل منها عقدة التقت عندها روابط الشرق ، وتعاقدت أواصره ؛ واحتكت فيها البادية بالحضر احتكاكاً لم يخل من عنف في بعض الأحيان ، ولكنه مع ذلك أنتج أطيب الثمرات .

وإلى الجنوب من مرتفعات شرق الأردن ووهاده تأتي الطرق من نواح متفرقة ؛ فيأتي طريق من الخليج الفارسي وشمال نجد وتبء والجوف ودومة الجندل ؛ ويأتي طريق آخر من اليمن والحجاز وعين صالح وجبال مدين في شمال الحجاز (وهو طريق رحلة الشتاء والصيف في الجاهلية وطريق الحج بعد ذلك) ؛ ثم طريق ثالث من البحر الأحمر ورأس خليج العقبة حيث قام ميناء أيلة القديم وحيث تقوم العقبة الآن ؛ ويأتي طريق رابع من مصر وشبه جزيرة سيناء أو من

ميناء غزة إلى أطراف فلسطين الجنوبية ثم وادي عربة وأرض بطرا والنبط القدماء . أما من شمال مرتفعات شرق الأردن فيأتي طريق من العراق الأوسط وبادية الشام إلى اليرموك وشمال مؤاب ؛ وطريق آخر من العراق الأعلى وتدمر إلى دمشق وحمّان ؛ وطريق ثالث من سوريا الشمالية وحلب وحمص إلى دمشق وأرض حوران ثم الجنوب ؛ وطريق رابع من شمال فلسطين عابر الأردن حتى يلتقي بطريق الشام ويمتد إما جنوباً وإما شرقاً وإما صوب الشمال . وهذه الطرق التي أسلفنا جميعاً يلاقى بعضها بعضاً ، أو تتقاطع على الأقل ، في أراضي شرق الأردن . وقد سلكها التجار وحداة الإبل منذ أقدم العصور ؛ وجاء هؤلاء التجار من جميع أطراف الشرق الأدنى يحملون السلع ويجمعون في الأسواق ، فيتبادلون الفكر وألوان الثقافة ، وبذلك تعارف الشرق وتألف في كثير من الأحيان . كذلك سلكت الغزوات والحملات نفس هذه الطرق ، التي قامت عليها الحمايات ، وأقيمت فوق روايها القلاع ، تشرف على الطرق وتحمي المسافرين وتنظم اتصال البادية بالحضر ، واحتكاك الرعاة البدو بوسطاء التجارة والقائمين على نقط التبادل والأسواق .

وهكذا كان شرق الأردن موقع اتصال واحتكاك منذ القدم ، واستمر كذلك على مر العصور . نفذت إليه السلطة المصرية من وقت إلى آخر ؛ وامتد إليه النفوذ العراقي في كثير من الأحيان ؛ وحاول أهل الشام وأهل فلسطين الشمالية وما وراءها أن يفرضوا سلطانهم عليه بين حين وحين ؛ بل إن أهل جنوب بلاد العرب والحجاز توسعوا في أطرافه الجنوبية واستقر بهم المقام في أكثر من مكان هناك . ولم يكن الأمر مقصوراً على هذه العناصر جميعاً ؛ وإنما امتدت الأيدي إلى شرق الأردن من أقاصي الأرض ؛ لأنه كان عقدة الشرق الأدنى ورباطه من الناحية العسكرية ؛ فنفذت إليه جحافل الرومان وأقامت حامياتها وعبّدت طرقها في ربوعه ؛ ثم اهتمت له بيزنطة فتدخلت في شؤونه العسكرية والسياسية إلى أبعد الحدود . ثم جاء عهد صارت فيه شؤونه الأقليم إلى أهله وسادته من أمويين وغيرهم . حتى إذا جاء العهد الصليبي نفذ الصليبيون من جديد إلى بعض قلاعه فأقاموا بها ، وكانت حامياتهم هناك شوكة في جنب العرب والمسلمين . فإذا ما جاء الأتراك العثمانيون اهتموا بأمره كطريق للحج ومنفذ إلى الأراضي المقدسة . وأخيراً جاءت الإمبراطورية البريطانية ،

فالتخذ رسلها ومبعوثوها إبان الحرب الماضية قيادتهم في فياقي هذا الإقليم الداخلي . وانهى الأمر في أعقاب تلك الحرب بأن حصلت بريطانيا على حق الانتداب على هذه المنطقة العسكرية الهامة ، التي غدت قاعدة حربية من الدرجة الأولى ؛ وقد برزت أهميتها بل تضاعفت إبان هذه الحرب المنتهية . وأغلب الظن أن بريطانيا ستستمسك ببعض الإشراف العسكري على أراضي هذا القطر الشقيق حتى بعد أن يحصل على استقلاله المرتقب ؛ فيقوم احتفاظها بقواعدها البرية والجوية هناك وإشرافها على ميناء العقبة على أساس الاتفاق والمعاهدة بينها وبين شرق الأردن ، بدلا من أن يستند إلى نظام الانتداب أو الوصاية أو غيرها من مظاهر الارتباط والتفويض الدولي .

ولن نستطيع هنا أن نسوق أكثر من أمثلة محدودة تبرز لنا قيمة هذا القطر من أقطار الشرق العربي ، وتبين لنا كيف أن التاريخ قد استعاد في عهده الحديث بعض صورته واتجاهاته الأساسية في بعض أعصره القديمة . ولم يكن ذلك إلا لأن قيمة هذا القطر كواسطة اتصال ونقطة سيطرة على طرق الشرق الأدنى وعلى منافذ أقطاره المختلفة كانت قيمة دائمة لا طارئة ، وكانت عاملا أساسيا باقيا ، أفاد منه واستجاب له سكان المنطقة نفسها ، كما أفاد منه واستغله كثير من الطامعين في السيطرة العالمية ، ومن امتدت أيديهم إلى الشرق الأدنى في تاريخه القديم وتاريخه الحديث على حد سواء .

وقد يكفيننا في هذا الصدد أن نغنى عناية خاصة بالموازنة بين عهد الإمبراطورية الرومانية وعهد الإمبراطورية البريطانية . فكلتا الإمبراطوريتين كانت لها يد أي يد في تصريف شؤون الشرق الأدنى وتوجيه تاريخه . وكلتا الإمبراطوريتين كانت لها مصالح مادية فيما وراء ذلك الإقليم ذات المين وذات الشمال . وكلتاها لم تقنع بأن تكل أمر الوساطة التجارية بين الشرق والغرب إلى العرب وغيرهم من سكان هذا الشرق ، وإنما فرضت نفسها وسلطانها عليهم فرضا ، وتدخلت في شؤونهم بما يضمن لتجارها الشرقية مع الهند وغيرها مرورا آمنا ورواجا مضمونا . وإذا كان التاريخ قد استعاد بعض فصوله في هذا الإقليم بين هذين العهدين المتباعدين فإن ذلك لم يكن مجرد المصادفة أو محض الاتفاق ، وإنما هو قد ترتب على اجتماع عدد من الظروف والعوامل الطبيعية والبشرية الواحدة أو المتماثلة في حالتين .

ولكننا قبل أن نصل إلى الإمبراطورية الرومانية ينبغي أن نشير إلى من سبق الرومان في شرق الأردن ، أو في جانب كبير منه على الأقل . أولئك الأنباط أو النبط الذين ازدهرت حضارتهم خلال ستة قرون ، كان أعظمها ازدهاراً ذلك القرن الذي يتوسطه مولد المسيح عليه السلام . وكانت قاعدة ملكهم في سلاع أو بطرا التي تقع على الحافة الشرقية لوادي العرابة ، والتي لا تزال آثارها باقية منحوتة في الصخور الرملية الوردية اللون ؛ وهي التي نزلت في أصحابها الآية الكريمة «وَنُنَجِّيْهُمْ مِنَ الْجِبَالِ يُيُوتُونَ فَارِهِينَ» . وكانت بطرا هذه عند ملتقى عدد من طرق التجارة التي أشرنا إليها من قبل ؛ فكانت سوقاً هامة أفاد أصحابها من التجارة والوساطة التجارية في الشرق ، وأصابعهم من اتصالحهم بالعالم الخارجي خير كثير ، تمثل في تلك الحياة الثقافية والفنية الراقية التي امتازت بها مدينتهم العتيدة ، حيث انعكست في معابدها وهياكلها المنحوتة والمشيدة مؤثرات الفن الآشوري والفن المصري البطلسي والفن الإغريقي ، بل حيث تأثرت الحياة العامة بضروب مختلفة من المدنية المادية والتنظيم الاجتماعي ، وبألوان متباينة من الثقافة العقلية والفكر الديني ، بعضها سامي خالص توارثه النبط عن أسلافهم من الساميين القدماء في بادية بلاد العرب نفسها ، وبعضها سامي غير خالص أخذوه عن الآشوريين في الشمال وعن السبئيين والحميريين في أقصى الجنوب وفي مستعمرة عين صالح في شمال الحجاز ، ثم بعضها مصري قديم أو بطلسي مختلط ، وأخيراً بعضها إغريقي أو إغريقي روماني أتى عن طريق شرق البحر الأبيض المتوسط . ومع ذلك كله فإن اختلاط المدنية والفكر والثقافة لا يجوز أن ينتقص شيئاً من قيمة حضارة النبط ؛ لأن الواقع أن شرق الأردن كان بحكم موقعه النقطة الوحيدة التي يمكن أن تلتقي فيها تيارات الثقافة المختلفة . وقد أثمر هذا الاختلاط ثمراته الطيبة ؛ وكانت ثقافة النبط وكتابتهم على وجه الخصوص أساساً من أسس الثقافة العربية والكتابة العربية التي ظهرت فيما بعد . والناظر الآن أن الخط العربي المعروف قد تطور عن الخط النبطي القديم .

وعند ما ظهرت أطباع الإمبراطورية الرومانية في الشرق القريب ، واقتربت تلك الأطباع بمصالحها التجارية في الهند ، ومصالحها الأخرى في بلاد الشرق الوسيط ، لم يقتنع أباطرة روما بأن تكون لهم قدم راسخة في مصر وشمال البحر

الأحرار، وإنما أدركوا أن حماية المصالح حامية كاملة تقتضى أن تمتد يدهم إلى شرق البحر المتوسط وشمال بلاد العرب، ليضمنوا السيطرة على طرق القوافل ويؤمنوها للمسافرين من جهة، وليليدوا أيديهم من هناك إلى رأس الخليج الفارسي ويشرفوا على بعض موانيه من جهة أخرى — والخليج الفارسي كان إذ ذاك، كما هو اليوم، أحد الطرق المؤدية إلى الهند، بلاد الثروة والغنى، ومورد كثير من النفائس والطيبات ١ — وهكذا استقر رأى تراجان إمبراطور روما على أن يضع يده على مملكة النبط؛ فغزا بلادهم في عام ١٠٦ الميلادي، واستولى على عاصمتهم، ثم على مينائهم في أيلة، و مديده آخر الأمر إلى طرف الخليج الفارسي.

وتحول شرق الأردن إلى ولاية رومانية؛ وبقي كذلك، أو فيما يشبه ذلك، بضعة قرون. وعنى الرومان بشأنه عناية خاصة؛ لأنهم أدركوا قيمته العسكرية والتجارية إدراكاً كاملاً صحيحاً. وقد وطدوا نفوذهم فيه وحافظوا على سيطرتهم عليه بعدة وسائل: منها أنهم أقاموا الحاميات القوية في عدد من مواقعه الهامة، حيث بنوا القلاع والشكنات، وشيدوا الهياكل والملاعب وغيرها مما لا يزال قائماً في جرش شمال عمان، وفي فيلادلفيا وهي عمان نفسها، ثم في يترأ وهي سلاع أو بطرا التي تعرف الآن بوادي موسى. ومن وسائل الرومان أيضاً أنهم مدوا الطرق الرومانية المعبدة والمرصوفة رصفاً جيداً يسمح بمرور العربات الحربية وانتقال الجند وتقل العتاد وغير ذلك، ولا تزال بقايا تلك الطرق قائمة حتى اليوم. ومنها أنهم جندوا الأعراب والبدو، واتخذوا منهم جنوداً مرتزقة، هم أقدر على العمل، وأقوى في الحرب وأعمال الحراسة وحملات التأديب في البادية من جنود الإمبراطورية غير الأعراب. ومنها أنهم شجعوا حياة الحضر المستقرة على حساب حياة البادية المتنقلة، حفروا الآبار وبنوا الصهاريج، وشجعوا الملكية الصغيرة؛ فاستوطن البدو، وبنوا بيوت الحجر الثابتة بدلاً من بيوت الشعر المتنقلة، فسهل بذلك حكمهم، وسلس قيادهم. ثم منها كذلك، وقبل ذلك، تشجيع الرومان لعناصر « النمدن » وألوان الثقافة الجديدة في أن تتوغل في حياة الأعراب، لا سيما بعد أن اعترفت الإمبراطورية بالمسيحية في القرن الرابع، فانتشرت ديانة المسيح بين أعراب البادية تدريجياً منذ أواخر ذلك القرن، وانتشر معها شيء من روح المسالمة بين أعراب كان كفرهم من قبل منكراً، وكان مراسهم شديداً. كل هذه وغيرها وسائل عمد إليها الرومان الغريبيون

والبيزنطيون الشرقيون من بعدهم لضمان سيطرتهم على هذا القسم من بلاد العرب . ولكن الشيء الغريب — أو لعله ليس غريباً — أنها كلها قريبة جداً مما تتبعته الإمبراطورية البريطانية في الإقليم نفسه من وسائل كان القصد منها أن تؤدي إلى غاية رعى إلى مثلها الرومان منذ قرون وقرون .

ولكن الرومان لم يلبثوا أن أدركوا أنهم إن استطعوا أن يثابروا على حكم البلاد كولاية رومانية ، وأنه خير لهم وأبقى أن يستعينوا بالبدو أنفسهم وبساداتهم في حكم البلاد . وهكذا صالح الروم القبائل ورحبوا بتسوح من قضاة ، عند ما جاءوا من جنوب بلاد العرب إلى خليج فارس ثم حدود الفرس حدود الروم حيث نزلوا في أواسط القرن الثالث الميلادي ؛ كما رحب الروم بعد ذلك بظهور الفساسنة ، وتأسيس ملكهم على حدود الإمبراطورية ، وفي ظل حكم بيزنطة الاسمي . وقد وجد الروم في إمارة الفساسنة ومملكته بعد ذلك أداة طيبة تحمي حدودهم من ناحية البادية ، وناحية الفرس وعملاء الفرس في أرض الحيرة المقابلة على الجانب الآخر من بادية الشام . وبلغ من تشجيع بيزنطة لغسان أن توجت المنذر بن غسان ملكاً على العرب حول عام ٥٨٠ الميلادي ... ولكن المهم أن نهضة غسان لم تكن كلها راجعة إلى الروم وتشجيعهم ، وإنما هي كانت راجعة أيضاً إلى العرب أنفسهم إذ ذاك . فقد عرفوا كيف يستفيدون مما حولهم من ظروف ، وتحكموا في تجارة الروم وإمبراطوريتهم الشرقية ، وأقاموا من موقعهم الجغرافي إلى حد بعيد ، وأقاموا مجدهم على أساس من النهوض بالحياة في مظاهرها المختلفة ، لاسيما ناحية الفكر والثقافة . فكان بلاط غسان مركزاً تطور فيه الأدب والفكر العربي قبل الإسلام ؛ وكان صنوه في ذلك بلاط ملوك الحيرة اللخمينيين على حدود إمبراطورية الفرس في العراق .

فإذا ما نحن تركنا هذا العهد ، وانتقلنا إلى عهدنا المعاصر ، وظهور نفوذ الإمبراطورية البريطانية في هذا القسم من الجزيرة العربية ، وجدنا صورة من التاريخ لما تم فصولها ، ولما يتكامل مظهرها النهائي ، ولكنها قريبة الشبه بما حدث في عهد الرومان الغربيين والروم الشرقيين . وقد بدأ البريطانيون يلتفتون إلى الشرق القريب في أعقاب حملة نابليون . وحاولوا أن يعدوا يدهم إليه ، ولكنها كانت محاولات متردة فأتوا إلى مصر مرة أو مرتين في مطلع القرن التاسع عشر ، ولكنهم ردُّوا عنها أو ارتدوا عنها ؛ لأنهم لم يكونوا فيما

يظهر جادين في أمرها ، كما كان الرومان تماماً أيام وفد يوليوس قيصر على مصر ثم رجع عنها . ثم جاء البريطانيون إلى مصر مرة أخرى في أيام الثورة العراقية ؛ ولكنهم كانوا قد استيقنوا من أمرهم وأمرها ، وآمنوا وصدقوا بقيمتها ، ففقدوا النية على أن تكون لهم هذه المرة ١ وكذلك تماماً فعل الرومان أيام واقعة أكتيوم ١ وفوق ذلك فقد قنع الانجليز بمصر وبقناة السويس وطريق البحر الأحمر ؛ وبقوا كذلك ثلث قرن كامل قبل أن يفكروا بطريقة جدية في أمر طريق الهند الآخر عبر بلاد العرب الشمالية إلى رأس الخليج الفارسي . ومثل هذا حدث أيام الرومان وإن كانت الفترة بين فتح مصر وفتح بطرا والوصول إلى خليج فارس طالت إذ ذاك إلى قرن وثلث قرن .

وحانت الفرصة مواتية لبريطانيا إبان الحرب العالمية الأولى . ولعل هذه الحرب ، وما طمعت فيه ألمانيا من الوصول إلى الهند عن طريق أملاك الإمبراطورية التركية والعراق بنوع خاص ، هي التي استجلبت اهتمام بريطانيا بشمال الجزيرة العربية ، وجعلت البريطانيين يسبقون الرومان في ذلك بقرن كامل ؛ مع أن الرومان ، والحق يقال ، لم يكونوا أقل من غيرهم حذقاً لشؤون السيطرة وفنونها . وقد بدأت بريطانيا سبيلها إلى التدخل العسكري في شؤون العالم العربي بأن استعانت بالعرب أنفسهم ، واستنجدتهم ضد الاتراك ، بعد أن بذلت لهم من الوعود ، وأخذت على نفسها من العهود ما هو معروف . وقد أرسلت بريطانيا عملاءها ومبعوثيها ، وبينهم لورنس الشهير ، فجنّدوا البدو وسلّحوا الأعراب في قلب البادية ، وهاجموا مؤخرة الجيوش التركية في جنوب شرق الأردن ووسطه ؛ وكانهم بذلك قد دلّوا على حصافة هيئة قيادتهم ، وحسن استقرارهم للظروف الجغرافية العسكرية ، عندما وضعت أصابعها على مفتاح الموقف في الشرق العربي الشمالي . ومهما قيل عن القيمة النهائية لمناوشات لورنس وأصحابه في قلب البادية ، فليس من شك في أن أقل ما فعلته أنها نقخت في أعراب البادية ، وألهبت فيهم روح الثورة والكفاح ، مما انتهى آخر الأمر إلى إذكاء ثورة العرب ، وزعزعة حكم الاتراك من الأساس .

وعند ما استقر الأمر لبريطانيا بالانتداب على شرق الأردن عمدت إلى تمكين سلطتها وسلطانها بوسائل كثيرة : منها أنها أقامت الحاميات والمعسكرات والقواعد الجوية في كثير من مواقعه ، لا سيما عمان نفسها ، التي لم تلبث أن

برزت قيمتها من جديد عند ما جعل منها سمو الأمير عبد الله عاصمة للإمارة . ولا يملك من يزور عمان ، خليفة فيلادلفيا وورثة موقعها ، إلا أن يلحظ على إحدى ربوات المدينة موقع الحصن والحامية الرومانية القديمة ، وأمام آثارها بأسفل الوادي مدرج الملعب الروماني القديم ، وكنيس كان الجند فيما يظهر يؤدون فيه بعض ما عليهم من عبادة . فإذا انتقل الزائر إلى ربوة أخرى من ربوات المدينة وصعد إلى سطحها المستوى وجد قاعدة قوة الطيران البريطانية ، ووجد قبل ذلك معسكر الجيش العربي ، وإلى أسفله مسجد هذا الجيش . فإذا دقق الزائر استطاع أن يتعرف على آثار الطرق القديمة ومعالم اتجاهاتها الأساسية ، وهي الطرق التي حددت موقع المدينة منذ نشأتها الأولى ؛ ولا تزال الطرق الحديثة تتبع نفس الاتجاهات ، فتشخص إلى بغداد والشام ، أو تأتي من فلسطين ، أو تتجه نحو الجنوب إلى رأس خليج العقبة . وقد مد البريطانيون من الطرق العسكرية مثل ما مد الرومان من قبلهم . وكثيراً ما يلحظ المسافر على الطريق الحديث آثار الطريق الروماني المرصوف تجري في محاذاته . ولم يكن الرومان في إدراكهم قيمة شق الطرق وتعبيدها كأداة للفتح والاتصال أقل من خلفائهم البريطانيين ؛ بل إنهم ربما كانوا أحذق منهم إذا راعينا الزمن الذي عاشوا فيه ؛ وهذه بعض طرقهم لا تزال قائمة بعد أن مضى عليها ما يكاد يقارب ألفي عام . كذلك لم يقف البريطانيون عند شرق الأردن ؛ وإنما مدوا نفوذهم إلى خليج فارس كما نعلم ؛ بل إلى خليج العقبة نفسه ، حيث مكثوا للإمارة شرق الأردن من أن تحتفظ بميناء العقبة ؛ لأنه مهم من وجهة نظر الأسطول البريطاني ، وكذلك لأنه قاعدة لتهديب الأسلحة بالبحر إلى البدو في الصحراء . وربما كان هذا هو السر في أن بريطانيا وقفت إلى جانب شرق الأردن عندما طالبت المملكة العربية السعودية بذلك المرفأ على أنه تابع لساحل الحجاز ومملكته السابقة .

ثم إن بريطانيا قد استعانت بالبدو في حراسة الطرق وتأمينها ، وفي تمكين الأمن ونشره ، كما فعل الرومان تماماً . وهداها ذلك إلى تأليف الجيش العربي ، والإتيان على تسليحه من الخزانة البريطانية . ويقال إن هذا الجيش يبلغ الآن زهاء ثلاثة عشر ألفاً ؛ بل يقال إنه قد بلغ الثمانية عشر ألف رجل ، وإنه مزود بأحدث الأسلحة ؛ وتتولى قيادته هيئة من الضباط البريطانيين . كما يقال إن

بريطانيا استخدمته وأفادت منه في إخماد ثورة العراق في الشرق ، وفي احتلال سوريا والشام في الشمال ، وفي حراسة حدود فلسطين ضد تهريب اليهود من الشمال الغربي ، كما أنجذت به ، أو ببعضه ، جيشها الثامن في مصر يوم تخرجت الأمور . ولعل هذا في حد ذاته يكشف لنا عن قيمة موقع شرق الأردن كقاعدة عسكرية يمكن أن تنبعث منها الجيوش والقوات إلى مختلف أرجاء الشرق العربي الشمالي في كل اتجاه .

كذلك انتهى الأمر ببريطانيا — أو لعله بدأ معها ، لأن البريطانيين كانوا أحكم من الرومان من هذه الناحية — بأن أدركت أن من غير الممكن ولا اليسير أن تحكم الإمبراطورية شرق الأردن كما تحكم الولايات والمستعمرات ؛ فالعرب ، وأهل البادية منهم بصفة خاصة ، لم يخلقوا لمثل ذلك ؛ ويظهر أن الله لم يجعلهم على ما جبل عليه غيرهم من أهل المدنية والحياة الناعمة ؛ فهم لا يتقبلون الضيم ولا يرتضون الحكم الخارجي المباشر . ولذا عمدت بريطانيا منذ البداية إلى ما لم يعتمد اليه الرومان إلا بعد حين وبعد دروس . فتركت بريطانيا حكم البلاد الداخلي لأمير شرق الأردن وسيدته الجديد ؛ ومدت إليه يد المعاونة في أن يوحد الأعراب ويجمع كلمتهم في هذا الوطن الناشئ الصغير ، الذي لا يزيد سكانه على ثلث مليون . وفوق ذلك فإن العرب من جانبهم لم يدعوا كل أمورهم للبريطانيين ؛ وإنما أخذوا كثيراً من أسباب نهضتهم بأيديهم ؛ واستطاع أميرهم أن يشيع في بلاده وشعبه نهضة مادية وأدبية وقومية عامة يأسسها من يزور هذا القطر العربي . والطريف أن هذه النهضة الحديثة تشبه من وجوه كثيرة ماسبقها من نهضات في عصور التاريخ الغابرة ، وأنها تستعيد نهضة ألفي سنة بنوع خاص . فالأراضي الزراعية بدأت تتسع على حساب الفياض والقفار ، لاسيما في وادي الأردن نفسه ، وفي بعض الأودية والبقاع المرتفعة حيث يزيد المطر زيادة نسبية ، وحيث تجود التربة في كثير من الجهات . وحياة الزراعة والاستقرار بدأت تعم على حساب حياة البادية والتنقل وراء الكلاً والمرعى ؛ وبيوت الحجر أخذت تظهر وسط بيوت الشعر وخيام الوب . وطرق التجارة بدأت تفتح وأسواقها تروج وتعمر . وثروة البلاد المعدنية بدأ البحث عنها واستغلالها . وموقع البلاد الجغرافي كقاعدة للتبادل والتجارة مع داخلية بلاد العرب أخذ يبرز من جديد ، ويفيد من أصحاب البلاد وسكانها . والنهضة الاقتصادية بصفة عامة ظهرت آثارها

ودلائها لكل زائر ، حتى لو كان سائحاً لا يعنى بغير المظهر . ويكنى أن يسير المرء فى شوارع عمّان أو غيرها من مدن شرق الأردن ، أو حتى أن يزور بعض نجوع الأعراب ليرى بنفسه كيف أن مستوى الكسب والمعيشة فى هذا القطر الداخلى من العالم العربى لا يقل عنه فى نظرائه من أقطار بلاد العرب بما فى ذلك مصر ^(١) . كذلك نهضة البلاد التعليمية والثقافية تسير على منهج يبشر بخير كثير . وقد يكون من الطريف — والمفيد أيضاً من وجهتى النظر المصرية والعربية العامة — أن نلاحظ أن ميزانية وزارة المعارف فى شرق الأردن لا تزيد كثيراً على خمسة وأربعين ألفاً من الجنيهات . ولكن تلك الوزارة تعلم بذلك المبلغ ، أو تشرف على تعليم ، اثنين وعشرين ألفاً من التلاميذ ؛ لا يمكن أن يقال إن تعليمهم ينقص فى كيفه وقيمته عما تقدمه وزارة المعارف فى مصر أو العراق مثلاً لتلاميذها . وآية ذلك ، أو إحدى آياته ، أن شباب شرق الأردن ، ممن لا يكلف الدولة تعليمهم أكثر مما يعادل جنهين مصريين اثنين للتعليم فى السنة ، يتمون تعليمهم الثانوى فى بلادهم ثم يحضرون إلى مصر فيتابعون دراستهم فى إحدى جامعاتها على خير ما يتابعه الطلاب الجامعيون من أبناء مصر . وفى ذلك مثال طيب يحسن أن تدرسه وزارة المعارف فى مصر إن كانت تريد أن تحتفظ بمكاتها من زيادة النهضة التعليمية فى الشرق العربى ^(٢) .

(١) أمضى كاتب المقال أياماً متنقلاً فى شرق الأردن منذ ثلاثة شهور ؛ ولس فيما استطاع أن يلس هذه الناحية بالذات . ويكنى أن تذكر أن متوسط أجر العامل العادى فى عمان لا يقل الآن عما يعادل أربعين قرشاً فى اليوم ، وكان قبل الحرب عشرة قروش . وقد ساعدت الحرب على رفع الأجور ، ولكنها لم تكن العامل الوحيد فى ذلك ؛ فارتقاء الأجور فى شرق الأردن يمثل ارتفاعاً حقيقياً فى مستوى الكسب والمعيشة العامة ؛ أو على الأقل هو أدنى إلى أن يمثل ذلك من الحالة فى بلد كصر . وفى شوارع عمان لا يرى الزائر أكثر من ١٥ ٪ من الحفاة بالنسبة لمجموع السكان ؛ ولا يكاد يرى غير قليل من آثار سوء التغذية والفاقة بين طعام أهل المدينة . وكذلك الحال إلى حد ظاهر فى البادية .

(٢) يتفق الجانب الأكبر من ميزانية التعليم فى شرق الأردن على المعلمين أنفسهم . فلا يقل راتب المعلم عن ستة جنيهات فى الشهر بحال ، ولو كان فى أصغر مدرسة ؛ ولا يزيد كذلك على أربعة وعشرين . وفى ذلك من إنصاف هذه الطائفة وتحقيق العدالة الاجتماعية شيء كثير . بل إن ذلك ربما كان أحد أسرار نجاح التعليم فى تلك البلاد رغم موارد الحكومة المحدودة .

أرأيت معي يا صاحبي القاريء كيف أن التاريخ يعيد نفسه في شرق الأردن؟ وكيف أن الحاضر، وما يلابسه من ماض قريب ومن مستقبل قريب أيضاً، يمكن أن يعتبر مرآة لبعض ما كان في الماضي البعيد من صور ومن فصول؟ ثم أرأيت معي أيضاً أن تجدد التاريخ واستعادته نفسه أمر طبيعي في كل هذا الشرق القريب ذي الحضارة العريقة والتاريخ الطويل؟ إن كان ذلك فلعلك توافقني على أن من المفيد أحياناً أن ندرس بعض تاريخنا، وأن نراجع صفحاته؛ فقد يكون في ذلك ما ينير السبيل أمامنا في استشفاف بعض ما ينتظر أن يكون عليه المستقبل! وما أشد حاجتنا في هذه الأيام، وفي هذا الشرق العربي كله، إلى أن نستبين معالم هذا المستقبل، ولو من بعيد!

المعلم مهدي